

الهوية الثقافية من الخصوصية نحو الكونية

The cultural identity from privacy to universality

ملخص :

لقد شهدت الهوية الثقافية تحولا عبر العصور انتقلت فيها من الهجنة الى النقاء تلبية للمصالح السياسية و للقوى التي تسعى إلى بسط نفوذها على العالم معتبرة الانقسام من شأنه أن يحفظ كيانها، فالاختلاف الثقافي كقيل بتحديد مكانة الأنا في مقابل الآخر لأن وجود هذا الآخر ضروري لمعرفة ذاته غير أن هذا النقاء المستعار سرعان ما فقد مفعوله خاصة بعد ما يسمى بالحركات التحريرية المقاومة للإستعمار وما خلفه هذا الأخير من تأثير ثقافي في عقول و نفوس الشعوب المستعمرة، كما كان للعولمة الغربية أيضا دور كبير في الانتقال من جديد إلى الهجنة الثقافية التي أصبحت كرهان وحيد ضد كل انشطار تتعرض له العلاقات الحضارية بدافع العرق أو اللغة أو الدين. وعليه، كيف يمكن تفسير الخصوصية الثقافية التي ساهمت في نحت هوية الشعوب؟ وهل يمكن للهجنة الثقافية أن تؤسس لشكل آخر من الهوية يجعلها تنتقل إلى الكونية التي تمتاز بالتنوع الثقافي؟

الكلمات المفتاحية: الهوية - الثقافة - الخصوصية - الهجنة - الكونية .

ملخص بالانجليزية:

The cultural identity has undergone a transformation through the ages, in which it moved from hygienic to purity in order to satisfy the political interests and forces that seek to spread its influence over the world, considering the division that would preserve its existence. Cultural differences can determine the status of the ego versus the other because the existence of this other is necessary to know himself, However, this purgatory quickly lost its effect, especially after the so-called liberation movements against colonialism and the latter's cultural influence in the minds and souls of colonized peoples. Western globalization also played a major role in the transition to cultural hybridity, D. Every fissure is exposed to cultural relations based on race, language or religion. Therefore, how can we explain the cultural specificity that contributed to the identity of the peoples? Is it possible for a cultural commission to establish another form of identity that transforms into a cosmopolitan culture characterized by cultural diversity?

Keywords: identity - culture - privacy - hybrids - cosmic.

مقدمة:

تشكل الثقافة اليوم مجالاً خصباً للعديد من الباحثين، حيث أصبح ينظر إليها على أنها الرهان الوحيد الذي تبقى في يد الإنسان المعاصر كفضاء للصالح والتعايش بين الحضارات في ظل ما يعانيه العالم اليوم من تصدعات وانشقاقات خلقتها الامبريالية السياسية بالدرجة الاولى، فوظفت الثقافة كأداة داعمة لكل رغبة سياسية في الهيمنة والتسلط على الاخر، وامتد هذا التأثير حتى مس الجوانب التربوية اين تم زرع فكرة ان الثقافة حاملة لهوية الشعوب وانها تعبر عن احدى الخصوصيات غير القابلة للانتهاك وبالتالي يجب حفظها والابقاء عليها، لكن مع التطور العلمي والتكنولوجي الذي شهده العالم وبشكل متزايد مع بداية القرن العشرين عصف بتلك الرؤية الايديولوجية والنرجسية التي شكلها الغرب لمفهوم الثقافة فلم تعد الثقافة شيء مقدس لا يمكن المساس به بل اصبحت الثقافة عبارة عن حقل متعدد الابعاد ومزيج من الاشكال الثقافية المختلفة لان العولمة قد شوهدت فكرة الخصوصية الثقافية وانتجت مفهوماً جديداً للثقافة.

ان العولمة قد جعلت من احتمال وجود ثقافة خالصة خاصة بمجتمع لم تتأثر بغيرها من الثقافات احتمال ضئيل جداً، لان العولمة قامت بكسر كل الحواجز التي من شأنها ان تحفظ الخصوصية الثقافية واصبحت بذلك مجالاً تلتقي فيه كل الثقافات بعيد عن كل التأثيرات السياسية التي خلقت ما يسمى بالخصوصية الثقافية، مما سمح للإنسان المعاصر ان يكون في احتكاك مباشر مع الثقافات الاخرى، فالانفتاح الكوني للثقافات الذي خلقتة العولمة، قاد الانسان المعاصر الى اعادة النظر في العديد من المسائل المتعلقة بالثقافة خاصة مسألة خصوصية الثقافة التي اصبحت ينظر إليها على انها موروث فطر الانسان عليه، ان هذه الخصوصية وقفت كحائل بين الثقافات في حين ان هذه الاخيرة في تكوينها لم تعرف اية خصوصية لأنها اخذت من جميع الثقافات الاخرى، فالاعتقاد بوجود ثقافة نقية ادى الى خلق الكثير من الازمات في العالم والتي نتج عنها العديد من الحروب، حيث لا يزال الى اليوم التمييز الثقافي قائم بين الحضارات وكل حضارة تعرف من خلال ثقافتها وعلى اساسها يتم التصنيف، لكن وبفضل العولمة لم يعد للخصوصية الثقافية اية كلمة خاصة مع بروز العديد من الفلاسفة الما بعد حدثيين الذين كان لهم اهتمام واسع بالثقافة كمحدد اساسي للهوية حيث ساند معظمهم فكرة التعدد والتنوع الثقافي بل تم اعتباره كرهان للتعايش بين الشعوب والحضارات لكن الاشكال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة كيف تم التأسيس لما يسمى بالخصوصية الثقافية؟

- هل الانفتاح على الآخر يهدد هذه الخصوصية؟

- الى اي مدى يمكن الاعتماد على التعدد الثقافي كحل لتجاوز الصراعات نحو امكانية قبول الآخر؟

اولا : الخصوصية الثقافية وتسييس الهوية:

ان اختيار الانسان العيش في مجموعات بشرية والتي تطورت الى غاية بروز ما يعرف اليوم بالمدينة والدولة جعل الانسان يبني عادات وتقاليد ويتبنى معتقدات تميز مجموعته عن غيرها من المجموعات سواء كان ذلك ماديا او معنويا حيث يعتبر فجميع هذه الانتاجات التي رافقته عبر التاريخ اصحب هي المحددة لهويته وانتماءاته، وهي ما يطلق عليها اليوم بالثقافة، وهذا ما يؤكد مفهوم تايلور الثقافي حيث يرى بانها "الكل المركب من المعارف و المعتقدات والفنون والاخلاق والقانون والاداب والاعراف والعادات وغيرها، يكتسبها الفرد باعتباره احد افراد المجتمع"¹ لذا نجد ان كل مجتمع متفوق داخل ثقافته وينظر الى ثقافة الاخر نظرة تبخيسية دونية وكأن ثقافته انقى من كل الثقافات الاخرى، فهناك من المجتمعات من اضى صبغة القدسية على ثقافته واعتبر ان الاختلاط بالأخر يدنس ثقافته وتعد الحضارة الصينية خير مثال على ذلك لأنه الصين قامت ببناء ما يعرف بسور الصين العظيم تقاديا من اي اختلاط مع غيرها من الشعوب الاخرى التي تعد ادنى مرتبة منها، وما زاد في تعزيز هذه الرؤية بروز الدين كظاهرة روحية لها ابعاد قيمية اجتماعية بالدرجة الاولى، فكان الدين هو عماد الثقافة تخضع له ويعد مقوم اساسي لها، مما جعل الدين ركيزة اساسية في بناء الثقافات، حيث نجد في اوربا ان المسيحية اصبحت تتدخل في كافة مجالات الحياة مما جعل الثقافة الاوروبية حبيسة الدين المسيحي ومن ثم اصبحت الهوية هي الاخرى خاضعة للدين مما ادى الى التمييز بين الشعوب من منطلق ديني فنقول هذا يهودي وذاك مسيحي والآخر مسلم وهذا ما نلمسه في كتابات المفكر الامريكي هنتنجتون صاحب كتاب صدام الحضارات، حيث رأى بان الدين هو المكون الاساسي للثقافة وان جميع التصدعات التي شهدتها العلاقات الانسانية كانت دينية ثقافية بامتياز ذلك لان الدين له قوة تأثير كبيرة على البشر وان هؤلاء لهم استعداد دوما لتضحية من اجل دينهم حيث يقول " هو قوة مركزية ، و ربما كانت هي القوة الرئيسية التي تعبئ الناس و تدفعهم"².

لقد ساهمت فترة العصور الوسطى في بلورة الثقافة الاوروبية حيث اعطتها صبغة دينية مما زاد في تعصب الغرب لثقافتهم التي تعد بدورها مصدر هويتهم، فنظروا بذلك الى هوية غيرهم من الشعوب نظرة دونية واعتبروا ان ثقافتهم ثقافة حضارة، ينبغي لها ان تنتشر في العالم، وهذا ما يتجلى

في الحروب الصليبية التي كانت ترمي الى نشر المسيحية في العالم وجعلها ديانة كافة الشعوب حيث ساند هذه الحملات العديد من المفكرين ذوي الفكر البراغماتي سياسيا ودينيا وكذلك ثقافيا مما يظهر اعتزاز الغرب بثقافتهم من خلال بروز الهوية القومية حيث اخذ الاوروبيون مع مطلع القرن الثامن عشر في التأسيس للدولة القومية تأكيدا على هويتهم لذا فان " عالم ما بعد قيام الدولة القومية ومخاضاته المعروفة قد دفع من قيمة الانسجام القومي والوحدة وتعزيز المركزية بدلالاتها في التحلق حول الذات"³.

ان التطور العلمي المتسارع نتيجة تحرير العلم من الهيمنة الكنسية وظهور العديد من التكنولوجيات التي افرزت لنا العولمة كوسيلة يسعى من خلالها الغرب الى زيادة نفوذه في العالم لكن في هذه المرحلة كانت مواجهة الغرب لغيره من الشعوب مواجهة ثقافية لان الغرب يريد تغريب المجتمعات المختلفة عنه ثقافيا وجعل ثقافته الثقافة الاكثر انتشارا في العالم وهذا من اجل خدمة مصالحه السياسية والاقتصادية لذا عادة ما تعرف العولمة بانها امركة العالم وجعله يسير في اتجاه واحد رسمته امريكا وما على الدول الاخرى الا الخضوع والتبعية وهذا ما اكد عليه فوكوياما عندما رأى بان العالم منذ نهاية الحرب الباردة اصبح يتجه في اتجاه واحد هو الاتجاه الرأسمالي لليبرالي الذي خلقته امريكا كنظام متشعب لا يقتصر على السياسة والاقتصاد فقط بل حتى في المجال الثقافي لان الثقافة لها قدرة كبيرة على احداث الصراع في العالم فالتخفيف من حدة التعصب الثقافي لدى البشر سيكون بداية للتحكم فيهم، من خلال " ابتكار نموذج منفتح للهوية الوطنية على غرار العقيدة الامريكية ، او هي الهوية المنفتحة (المتقبلة) للقادمين الجدد بغض النظر عن العرق او الدين "⁴ لذا عادة ما ينظر الى العولمة على انها كانت سبب في اخماد الحس الثقافي لدى الجماهير، فالثقافة السائدة هي الثقافة الغربية الامريكية وهذا الامر لا نلمسه فقط في المعرفة والعلم بل كذلك في العادات والتقاليد مما ادخل المجتمعات المتخلفة في ما يسمى بأزمة هوية، لان كل ما يعصف بالثقافة يهدد هوية الشعوب وكيانها.

ان كانت العولمة فضاء تلتقي فيه جميع الثقافات والتعايش بين هذه الثقافات لم يتحقق لان هناك ثقافة واحدة خرجت الى السطح وهي الثقافة التي اوجدت هذا الفضاء وانتجت العديد من الحركات الاصولية التي تطالب بالعودة الى الاصل لان " الناس يعرفون انفسهم من خلال النسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والمؤسسات الاجتماعية "⁵ التي يستمدون منها اصولهم فهذه الحركات تنبعت الى مدى خطورة الغزو الثقافي بواسطة العولمة، لكن هذا الامر كان متأخرا، لان نهضة العرب لم تحدث الا بعد ان تفتنوا مع نهاية القرن التاسع عشر الى ما تحمله العولمة من مؤثرات تعصف

بتقافة مجتمعاتهم، لكن في مقابل ذلك برز في نهاية القرن العشرين العديد من الفلاسفة الذين كانت لهم مقاربات فلسفية متعددة حول مسألة الثقافة حيث كان طرحهم لمسألة الثقافة من منظور كوني عالمي متجاوزين بذلك تلك النظرة الضيقة للثقافة والتي ترتبط بالحيز الجغرافي والمكاني نحو الانفتاح على الآخر انفتاحا ثقافيا وحضاريا حيث يصبح هذا الآخر كيان وجودي يقاسمني الحضور في العالم مما يفرض على الانا قبول هذا الآخر بما يحمله من اختلاف ثقافي وهوياتي لان التعايش بين الآخر والانا لا يمكن ان يتحقق الا في جو تسوده قيم التسامح والتعارف والحوار لان هذا الاخير هو حوار بين ثقافات متعددة يفرض الاحترام المتبادل مما يخلق فضاء ثقافي متنوع.

ان مسألة التنوع الثقافي كان لها صدى كبير في الفكر الفلسفي المعاصر فالنظر في الثقافة يقود الى اعادة النظر في العلاقات الانسانية وكذلك في هوية البشر من حيث التشابه والاختلاف فان كان التشابه يحمل امكانية التعايش فان الاختلاف يمكنه هو الآخر ان يحمل امكانية التعايش وذلك من خلال بناء عقول قادرة على قبول الاختلاف واعتباره حتمية اجتماعية وكذلك انطولوجية لا بد من التأقلم معها وقبولها من اجل امتصاص كل ما من شأنه ان يحدث صراع داخل المجتمعات لان الاختلاف في العادة يقود الى التناحر والعداء والانسان تم برمجته في اطار التربية الاجتماعية على النفور من الآخر المختلف. بالرغم من ان هذا الآخر في نظر ريكور ضروري لوجود الانا لان " مشكلة الهوية والعلاقة مع الآخر كتعين للذات ذي سمات موضوعية من جهة، وكهوية تشير الى نفسها ومسؤولة عن افعالها واقوالها من جهة اخرى، فلا بد من اعادة تأسيس الذات بالمرور عبر الآخر وتوسطه لإقامة جدليتها مع غيرها"⁶

ان الانسان اليوم ومع التطور العلمي والتكنولوجي لم يعد يؤمن بفكرة الثقافة الواحدة بل هذه التكنولوجيا ادخلت الانسان في كوكبة واحدة دون ان تعطي للاختلافات التي افرزتها ايدولوجيات معينة عبر التاريخ ادنى اهتمام ولم يعد للحدود الجغرافية كلمتها لان العولمة كإنتاج غربي عملت على كسر هذه الحدود من اجل بناء امبراطورية جديدة محافظة بذلك على اصلها الاول لكن ظهورها كان بشكل مختلف واكثر سلمية الا ان الغاية واحدة وان تغيرت الوسيلة فالغاية من كل هذا هو الهيمنة على شعوب العالم ثقافيا لان الشعوب التي يمكن السيطرة عليها ثقافيا يمكن فرض اشكال الهيمنة الاخرى عليها ليتحول بذلك الاستعمار من استعمار عسكري للأراضي الى استعمار ثقافي لتصبح الثقافة اداة سيطرة بعدما كانت اداة مقاومة لأنها حاملة لهوية الشعوب.

ان فكرة الخصوصية الثقافية هي فكرة امبريالية بالدرجة الاولى اوجدتها القوى السياسية من اجل الحفاظ على نفوذها في العالم مما يجعل الثقافة الواحدة وسيلة هذه القوى لخلق الانقسام في العالم،

فالمتمعن في هذا الانقسام يجد ان الثقافة هي السبب الاول المحدث له لأنه عادة ما يتم التمييز بين الشعوب وفق المعايير الثقافية فمن خلال الثقافة يتم تحديد الاخر بالنسبة الى الانا وانطلاقا من الثقافة يتم الحكم على هوية الاخر وهذا الامر اكده ترفيتان تدوروف عندما اقر بان " للإنسان محددات تلعب في تحديد هويته وهي سمات بنيوية كالتنشئة والعادات وانماط العيش الجماعي، لكن هذه الخصائص لا تشكل وحدها بعد الهوية الا اذا ادرجنا في مفهوم الانتماء الثقافي وتعدد الهويات التي تتداخل فيما بينها"⁷ وبالتالي فان التوقع داخل الثقافة الواحدة يدعم بشكل كبير الامبريالية ويزرع في شعوبها فكرة حب الذات والاستعلاء الثقافي الذي يزيد من الهوية بين الشعوب ويجعل امكانية التفاهم مع الاخر امر مستبعد وهذا الامر كشف عنه العديد من الباحثين في الدراسات ما بعد الكولونيالية الذين تنبهوا الى مسار تطور الهوية الثقافية للشعوب على مر التاريخ فانتهاوا الى ان الهوية الثقافية هي اختراع امبريالي لأنها في الاصل عبارة عن هجنة، فجميع الثقافات اخذت من بعضها البعض وبالتالي لا يمكن العثور على ثقافة تشكلت بمعزل عن الثقافات الاخرى.

يرى اصحاب النظرية الما بعد كولونيالية وعلى راسهم هومي بابا صاحب كتاب موقع الثقافة ان الثقافة هي عبارة عن مزيج من العادات والتقاليد التي كونها الانسان في اماكن مختلفة ومتعددة، كما اقر بان كل ثقافة يعود الفضل في تشكيلها الى ذلك الاختلاط الذي صاحب ترحال الانسان، فالثقافات هي الاخرى عرفت الترحال من منطقة الى اخرى، لكن رغبة الانسان في الهيمنة والسيطرة دفعت به الى اعتبار الثقافة شيء مقدس فأقام نتيجة ذلك سياج دوغمائي حول ثقافته صانعا بذلك هوية تميزها ثقافتها على بقية الشعوب الاخرى و بالتالي فان فكرة النقاء الثقافي حديثة العهد لم تظهر الا مع الاستعمار الاوروبي لبلاد الشرق من اجل تبرير هذا الاستعمار، فما دامت الدول الغربية تمتلك ثقافة راقية فان لها الحق في نقل هذه الثقافة الى الشعوب المتخلفة وذلك حتى تأخذ بيدها نحو ركب الثقافة الغربية، لكن كل هذه تبريرات لا تكشف عن الجوهر الحقيقي للاستعمار الذي عمل لقرون على تغريب المجتمعات الشرقية واعادة انتاج هويتها، لا انه خلق هوية في فضاء ثالث لا يخص المستعمر و المستعمر حيث تظهر " الهوية في هذا الفضاء لمزدوج والمتناقض، وهو بالنسبة الى بابا يجعل الادعاء بوجود نقاء هرمي للثقافات قضية وهمية"⁸.

ان الممارسات الغربية داخل المجتمعات المتخلفة قد ساهمت بشكل غير مباشر في خلق هويات ثقافية هجينة ذلك لان الاستعمار لم يكن ذو طابع سياسي عسكري فحسب بل كان له تأثير ثقافي كبير لأنه هاجم ثقافة الشعوب المستعمرة وسعى الى طمسها واحلال ثقافته محل ثقافتها لكنه لم ينتبه الى ذلك التأثير الذي احدثته ثقافة المستعمر في المستوطنين الذين عادوا الى بلدانهم وهم

يحملون ثقافة المجتمعات المتخلفة وبالتالي فان التأثير لم يكن من جهة واحدة فقط، وهذا ما ادى الى بروز ما يعرف اليوم و بشكل دقيق في الدراسات الما بعد كولونيالية بالهجنة الثقافية التي تثبت الخصائص المركبة للهوية " فجماعات مختلفة يمكن ان تجتمع على الرغم من اختلافهم مما يكسبهم قوة اضافية، فهناك ما يفرق بين اعضاء هوية واحدة بنفس مستوى ما يوحدنا"⁹ وبالتالي فقد اصبحت الهجنة او الخصائص الثقافية المركبة تفرض نفسها داخل العلاقات الانسانية، بل ان الانسان الما بعد كولونيالي اصبح اكثر انفتاحا على الاخر وله قابلية على التأقلم مع الاخر وهذا ما نلاحظه في الولايات المتحدة الامريكية خاصة نيويورك التي يقول عنها ادوارد سعيد انها فضاء تلتقي فيه جميع الثقافات اين يتعايش الناس فيما بينهم دون اعطاء اهتمام كبير للتمييز العنصري والاختلاف الثقافي فالجميع يحترم ثقافة بعضهم البعض حيث يدعو ادوارد سعيد الى " دراسة جغرافيا الهويات والثقافات والشعوب لمعرفة كيفية تقاطعها على الرغم من الفروق القائمة بينها وتداخلها عبر التأثير اللاترابي. فالهوية لا تتطوي على ثبات او تفرد او ذات شخصية غير قابلة للتغيير ومحتمة الى الابد كشيء كلي وكامل"¹⁰ اي ان الهوية في جوهرها التغير والتحول لا الثبات والانغلاق لان الثقافات تمازجت عبر التاريخ.

كما حملت ايضا افكار فلاسفة ما بعد الحداثة فكرة التنوع الثقافي التي تقف في الطرف المقابل للخصوصية الثقافية ، حيث حمل هؤلاء على عاتقهم مسألة الدفاع على التنوع الثقافي وبرهنوا على ان العلاقات الانسانية تسير نحو الانفتاح على الاخر وعلى الكون و ان تعصب الفرد لثقافته بات امر غير مهم للعديد وان الهوية الحقة للإنسان على اختلاف دينه وجنسه وعرقه هي الانسانية و بالتالي لا فائدة من تلك الحدود الثقافية التي تشكلت منذ نهاية القرن السابع عشر مع فلاسفة التمييز العرقي ذوي التوجه الاستعماري وهذا ما نلمسه في فلسفة جيل دولوز وادغار موران وتايلر بيار بورديو وفلاسفة مدرسة فرانكفورت وغيرهم من الفلاسفة الذين بذلوا جهودهم في خدمة الاختلاف والمغايرة بالصد مما يعتبرونه ميلا فلسفيا الى حجب التناقضات، وبالتالي تبرير ما هو كائن وقائم بالسعي الى التماثل والوحدة، فهؤلاء يتحاشون مشروع التوحيد الذي تجسمه الدولة من قوة وسلطة ويتحرزون من ان يؤدي امر من هذا الى الانغلاق بما ينطوي عليه من تعصب وجمود"¹¹

ثانيا: التنوع الثقافي والانفتاح على الاخر

لقد ساهم الانفتاح على الاخر في خلق فضاء ثقافي متنوع، ذلك لان الانفتاح يقتضي عدم التعصب والانحياز الثقافي لثقافة معينة لان هذا التعصب والانحياز يقف كحائل امام الانفتاح مما يجعل منه امر غير ممكن، فأينما يوجد تعصب نجد نفور من الاخر وتوقع حول الانا مما يقف

كعائق امام امكانية قيام اي حوار و تبادل ثقافي، و بالتالي فان مظاهر الانفتاح على الاخر تكمن في التنوع الثقافي، الذي يساهم بدورها في تطور ثقافة الاخر لان في خضم هذا الانفتاح الثقافات تأخذ من بعضها البعض، كما يؤدي ايضا الانفتاح الثقافي الى التخفيف من حدة التوتر الذي انتجته الاديولوجيات والقائم بين الحضارات خدمة لمصالحها السياسية والاقتصادية الا ان العولمة لعبت دورا مهما في توجيع الثقافت الانسانية فكانت بذلك هي الحامل للانفتاح الثقافي فابطلت بذلك المفعول السياسي الذي سعى دوما الى خلق الانشطار الثقافي والانقسام الحضاري بالرغم من ان جوهرها كما يرى روجيه غارودي عبارة عن " نظام يمكن الاقوياء من فرض الديكتاتوريات اللانسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق"¹²، ان العولمة في نظر غارودي قد استعملت كحيلة من اجل السيطرة والهيمنة على شعوب العالم خاصة من النحية الثقافية لكن لا بد من القول بان العولمة كانت ايضا سببا في ايجاد التنوع الثقافي حيث لم يبقى التنوع الثقافي حبيس الاجهزة التكنولوجية ومواقع التواصل الاجتماعي بل ان هذا التنوع اصبح واقع معاش و في المجتمعات الغربية بشكل اكبر بفعل الهجرة التي كان لها هي الاخرى الى جانب العولمة والاستعمار دور مهم في خلق التنوع الثقافي.

يرى روجي غارودي ان فكرة التنوع الثقافي فكرة قديمة لكنها ظهرت في احسن صورها في الحضارة الاسلامية وبشكل اخص في الاندلس التي مثلت الحضارة الاسلامية في اوج ازدهارها حيث شهدت اختلاط وتمازج العديد من الثقافات التقت في الثقافة العربية الاسلامية بالثقافة الغربية الاوروبية دون ان يكون هناك اي تعصب ثقافي من طرف الحضارة الاسلامية لأنها كانت تمثل القوة التي بإمكانها ان تفرض ثقافتها بالقوة على الشعوب الاوروبية ترغمها على التخلي عن ثقافتها، لكن الحضارة الاسلامية كانت اكثر انفتاحا على الاخر لم تهاجم ثقافته بل اعترفت بها على عكس ما قامت به الدول الاستعمارية الغربية التي حاربت ثقافة الشعوب المحتلة بهدف انتزاعها من هويتها الثقافية ونشر الثقافة الغربية كتقافية سامية" ان حوار الحضارات ، و قد فصمته ستة قرون من الاستعمار و ازدياد الثقافات اللاغربية ، لم يستأنف الا في القرن العشرين ، ولا ريب في ان رسالة القرن الحادي و العشرين تمثل ... في المضي الى النهاية في تحقيق فن عالمي و ثقافة عالمية"¹³ .

كما يرى ايضا جيل دورلوز بان الحضارة المعاصرة لا بد لها ان تقبل بالاختلاف كخطوة مهمة نحو التعايش بين الثقافات، فلا يمكن ان يكون الانفتاح الا اذا كانت هناك رغبة في قبول الاخر المختلف دينيا ولغويا وثقافيا بشكل واسع وهو ايضا ما اكد عليه الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا من خلال دعوته الى الاختلاف الذي لا بد من الاعتراف به كحتمية لا بد منها لان " تفاعل الاختلافات

يستتبع تراكيب واحالات تحول دون ان يكون هناك عنصرا وسيطا في اية لحظة، فكل شيء لا يكون حاضرا او غائبا ببساطة، فالاختلاف في الحقيقة محو لأصل الحاضر¹⁴ وعليه فان الاختلاف يعد ثورة ضد كل ما هو مألوف يسعى الى اختراق الحاضر وقلب الموازين واعادة النظر في كل ما تم تهميشه خاصة الاخر الذي عمل الغرب الاوروبي دوما على خلق هويته الثقافية والحضارية منذ عصر الانوار الذي حمل معه البوادر النزعة الانسانية التي رفعت من شان الانسان الاوروبي فقط، حيث يقول ادغار موران في هذا الصدد ان الغرب الاوروبي " جعل هذه النزعة الانسية تقتصر على المنتسبين اليه ، اقصى منها الشعوب الاخرى المختلفة التي اعتبرها بدائية وبربرية او ككائنات طفولية تعيش مواصفات العهود السحيقة"¹⁵.

ان الاخر المختلف قاد دريدا الى الحديث عن مسألة الضيافة باعتبارها مفهوم جد مهم في المجتمعات المعاصرة، مؤكدا ان حسن الضيافة لا بد ان يكون مبني على فكرة قبول الاخر بكل ما يحمله من اختلافات ثقافية وحضارية وان الضيافة تفرض على الضيف ان يحترم ثقافة المضيف من عادات واعراف فالضيافة " نوع من فن الانصات للآخر بما هو احر واستقبله في تميزه وتقده، بعيدا عن اوهام المطابقة او المقايسة، الضيافة اعتراف بالآخر الاجنبي وحمل له وتحمل"¹⁶ وهذا ما يجعل العلاقة قائمة على الحوار والتبادل وينقلها من حالة النفور الى التجاذب والانفتاح.

ذهب رواد مدرسة فرانكفورت الى ان العلاقات الانسانية مبنية على الاختلاف وانه لا توجد ثقافة واحدة بل هناك مجموعة من الثقافات لكن هذه الثقافات متباينة من حيث الانتشار و مدى قوة الحضارة ايضا لان الاقوى هو الذي يفرض حضارته وهذا ما خلق لنا مجموعات ثقافية منها من هو في المركز مثل الثقافة الغربية ومنها من في الهامش كما هو حال الكثير من الاقليات في العالم، فالثقافة هي هوية الشعوب ورأسمالها الرمزي لذا فان الاقليات في العالم تسعى الى انتزاع الاعتراف بها من طرف القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ذلك حتى يكون لها وجود في العالم كبقية الشعوب الاخرى حيث يرى اكسل هونيث ان مسألة الاعتراف هي مسألة هوية بالدرجة الاولى ذات بعد ثقافي بامتياز تحاول من خلاله الاقليات ان تثبت وجودها وتدافع عن مقوماته الثقافية، فالاعتراف كمسألة سياسية واقتصادية واجتماعية ما هو الا دعوة الى الانفتاح على الاخر وقبول اختلافه الذي هو امر طبيعي فرضته الطبيعة على المجتمعات البشرية لان " الاعتراف المتبادل كفيل بوضع حد للصراعات الاجتماعية القائمة على السيطرة والهيمنة والظلم الاجتماعي، ومن ثمة يستطيع الافراد تحقيق ذواتهم وهوياتهم ضمن علاقات تداوتية"¹⁷.

كما أكد أيضا هابرماس على أهمية وجود الآخر رافضا بذلك التحيز والتهميش مؤسسا بذلك لثقافة الاختلاف وقبول الآخر مهما كانت اختلافاته الثقافية والاجتماعية من خلال دعوته الى اخلاقيات التواصل التي تسمح للآخر من التفاعل وابداء رأيه داخل الفضاء العمومي بعيد عن اي احتقار ودونية التي من المحتمل ان يكونها الانا تجاه الآخر وهذا ما قاده الى القول بإمكانية بناء مواطنة عالمية او كونية حيث يقول في هذا الصدد " لقد غدا التواصل الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته"¹⁸

ثالثا: التنوع الثقافي وبناء هوية كونية

في ظل التنوع الثقافي الذي تشهده حضارة العصر لم يعد الحديث عن هوية بالمعنى الكلاسيكي له اية أهمية ذلك لان الهوية لم تعد واحدة بل هناك مجموعة من الهويات التي اصبح تحاكي بعضها البعض مما خلق هوية جديدة تتميز بالهجنة، اي ان الانسان اليوم لم تعد له هوية واحدة بل العديد من الهويات التي شكلها من خلال الاتصال بالآخر والانفتاح عليه، حيث نجد اليوم تأقلم كبير بين الاجناس بمختلف ثقافاتهم وهذا التأقلم ادى الى تبادل الثقافات وتمازجها وهذا التمازج بدوره كان له تأثير كبير على الهوية فاختلاط الثقافات يقود حتما الى اختلاط لهويات، وانسان اليوم لم يعد يقنع بالهوية ذات اصل ثقافي خالص لان هذا الاصل ليس له وجود عبر التاريخ بل تم خلقه بواسطة قوى كانت لها مصالح من ذلك.

لقد ظهر في الفكر الفلسفي العديد من المقاربات الفلسفية ذات بعد استشرافي لمستقبل الهوية حيث برزت العديد من المفاهيم التي تؤكد على ان الهوية تتجه نحو الكونية التي تكون الانسانية هي غايتها القصوى بغض النظر عن العرق والجنس والدين واللغة،، حيث يرى تيري ايجلتون ان الثقافات في الاصل هي ثقافات " جزئية ولا تستطيع ان تعبر الا عن نفسها ولولا الاختلافات لاختفت. فما يؤلف هويتي الذاتية نفسها هو الهوية الذاتية للروح الانساني وما يجعلني من انا هو ما هيتي الذاتية نفسها التي هي الهوية الذاتية للروح الانساني"¹⁹ اي ان هوية عند ايجلتون تتجلى في الانسانية وتنبثق منها وتعود اليها بغض النظر عن اي اختلاف ثقافي يعد مكو للهوية.

ان رغبة تجاوز الهوية بمفهومها الضيق ادى الى بروز مفاهيم تقود الهوية من الطرح الكلاسيكي نحو مفاهيم اكثر انفتاحا وكونية ومن بين هذه المفاهيم الهوية المركبة التي نادها بها ادغار موران حيث رأى بانه لا وجود لهوية خالصة فالهوية الواحدة تشاركت في تكوينها العديد من العوامل الداخلية والخارجية وبالتالي فهي كل مركب من ثقافات متعددة، والهوية المركبة تقود الانسانية نحو الانفتاح على الكوني وهذا " بدا بعد اكتشاف امريكا والكشوفات الجغرافية، حيث دخل الكوكب في منظومة بين

تواصلية تطورت معها الافكار التحررية. وهي القيم التي انتجتها ثقافة اوربا وتوسعت تاريخيا لتأخذ الشكل العولمي لها²⁰ والهوية الهجينة التي جاء بها اصحاب الدراسات الما بعد كولونيالية والتي تتجسد بشكل كبير في نظرية الثالث ادوارد سعيد وهومي بابا وغاياتري سبيفاك فجميع هذه المقاربات تقر بان الهوية تتجه نحو العالمية والكونية و ان العلاقات الانسانية لم تعد خاضعة للقوى السياسية بما ما تحمله من ايدولوجيا.

كما اكد ايض الفيلسوف الفرنسي ترفيتان تودوروف ان العلاقات الانسانية تتجه نحو الكونية من اجل بلوغ الشرط الانساني الذي تغلى عنده جميع الفروقات العرقية والاثنية فجميع الهويات نابعة عن تعدد ثقافي، وبالتالي يسعى تودوروف الى تنفيذ فكرة وجود هوية خالصة نظرا لما تتعرض له الهوية عبر التاريخ الى تغير وتحول جراء التواصلات الانسانية وتأثيرات الانظمة السياسية والاجتماعية متجاوزا بذلك الطرح الانواري لمسألة الهوية نحو الهجنة التي تعد بمثابة طريق مسدود تقف عنده وتجتمع عليه جميع الهويات على اختلافها مقتنيا بذلك تودوروف اثر الدراسات الثقافية الما بعد كولونيالية حيث يقول : " ان الهوية الفردية تتجم عن النقاء هويات جماعية متعددة داخل الشخص الواحد بالذات " ²¹

خاتمة

مما تقدم يمكن القول ان التنوع الثقافي من بين الظواهر السائدة في المجتمعات المعاصرة، لان التقدم العلمي والتكنولوجي ساهم في تقريب المسافات والتواصل مع الاخر من اجل الانفتاح عليه مما جعل العلاقة القائمة بين الانا واخر قائمة على الحوار والتبادل الثقافي بدلا من الصراع الذي لا غاية له الا اثبات الذات والهيمنة على الاخر، فاذا كانت السياسة قد عملت لقرون على تفتيت العلاقات واختزالها في مفاهيم متقابلة على شكل ثنائيات فان التنوع الثقافي يعد بمثابة رهان ضد كل سياسة وايدولوجيا من شأنها ان تخلق فوارق في المجتمعات الانسانية.

ان وجود كل حضارة مرتبط بما تحمله من ثقافة، لان هذه الاخيرة تعبر عن كيانه وهويته وفصل الهوية عن الثقافة يؤدي الى ضياعها، لكن التنوع الثقافي الذي ساهمت عوامل عدة في نشوءه كالاستعمار والعولمة والهجرة جعل المفهوم الثقافي للهوية مفهوم مرن فلم يعد ينظر اليها على انها الجوهر الثابت غير القابل للتغيير، بل اصبحت حقلا مفتوحا لاجتماع كافة الهويات بثقافات متعددة.

هوامش:

- ¹ - جيلالي بوبكر ، الهوية والعولمة، الهوية والاختلاف ، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد 26، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ط 1 ، 2016 ، ص 402 .
- ² - صامويل هنتجتون ، صدام الحضارات اعادة صنع النظام العالمي،ترجمة : طلعت الشايب ، د . ن . د . م ، ط 2، 1999، ص 110.
- ³ - بكرى خليل، مفهوم الهوية و اسئلة التماثل والاختلاف، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد 26، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ط 1 ، 2016 ، ص 447.
- ⁴ - فرانسيس فوكوياما ، الاسلام و الحداثة و الربيع العربي ، ترجمة : حازم نهار ،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ، ط 1 ، 2015 ، ص ص 155 ، 156 .
- ⁵ - صامويل هنتجتون ، صدام الحضارات اعادة صنع النظام العالمي،ص39.
- ⁶ - بكرى خليل، مفهوم الهوية و اسئلة التماثل والاختلاف، ص 451.
- ⁷ - توفيق شابو ، وهم الهوية المتفردة وبربرية الاستعلاء الثقافي قراءة في نقد استراتيجيات المركز ، مقال ضمن كتاب جماعي ثقافة المقاومة ، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية ، 2016،ص 437.
- محمد كريم الساعدي ، هومي بابا والقراءة النفسية بين الانا والآخر، الحوار المتمدن ، العدد 5834، 2018/04/3⁸.
- ⁹ - بكرى خليل، مفهوم الهوية و اسئلة التماثل والاختلاف، ص 455.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص 456.
- ¹¹ - المرجع نفسه ، ص 447.
- ¹² - جيلالي بوبكر ، الهوية والعولمة، المرجع السابق، ص 396.
- ¹³ - روجيه غارودي، في سبيل حوار الحضارات ، ترجمة : عادل العوا ، عويدات للنشر و الطباعة ، بيروت ، 1999، ص 137.
- ¹⁴ - بكرى خليل، مفهوم الهوية و اسئلة التماثل والاختلاف، ص 450.
- ¹⁵ - ادغار موران، ثقافة اوروبا وبربريتها ، ترجمة : محمد الهاللي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2007، ص 25.
- عبد الغني بارة ، الضيافة اللغوية وخطاب الهوية -قراءة تاويلية - ، كلية الاداب والعلوم ، جامعة سطيف ، ص 2¹⁶.
- ¹⁷ - كمال بومنيير ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر الى اكسل هونيث ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1، 2010 ، ص 108.
- ¹⁸ - حسن مصدق ، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2005 ، ص 141.
- ¹⁹ - بكرى خليل، مفهوم الهوية و اسئلة التماثل والاختلاف، ص 453.
- ²⁰ - توفيق شابو ، وهم الهوية المتفردة وبربرية الاستعلاء الثقافي قراءة في نقد استراتيجيات المركز،ص441.
- ²¹ - تزفيتان تودوروو: الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات ، ترجمة : جان ماجد جيور، د . ن . د . م ، د . د . ن ، ص 59.